سُميت هذه السورة سورة التوبة، وسورة براءة. التوبة لأن فيها توبة الله على النبى (ﷺ) والمهاجرين والأنصار، وعلى الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك. وسميت براءة؛ لأن محمدًا (ﷺ) أرسل آياتها الأولى مع على (رضي الله عنه) يقرأها على أهل مكة والحجاج، ويعلن عليهم براءة الإسلام والمسلمين ممن نقضوا عهودهم المرة تلو المرة، وأمهلهم أربعة شهور، ليتوب من يعود لرشده، فمن أصر على عداوته، فليتحملها ولا يتحجج بعهد بعد أن نقض عهده المرة تلو المرة[1]، وأما من لم ينقض عهده، فيحافظ المسلمون على عهدهم معه ويتموه إلى نهايته. وسيجىء فى السورة أن على المسلمين أن يجيروا المشرك الذى يلجأ إليهم طلبًا للحماية، ويسمعوه كلام الله، فإذا أسلم فبها ونعمت، وإن رفض الإسلام فعليهم أن يحموه ويأخذوه سالمًا إلى المكان الذى يأمن فيه.

***

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(*) إلا آخر آيتين، فمكيتان.

(١) فمنهم من أجاب عليًا قائلاً: ليس بيننا وبين ابن عمك سوى الطعن بالرماح والضرب بالسيوف.

نزلت سورة التوبة فى أواخر السنة التاسعة للهجرة، واختلف المفسرون فى سبب عدم نزول البسملة قبلها، وقال شلتوت: [أما ترك التسمية بينهما (الأنفال والتوبة) فلأنها لم تنزل بينهما كما نزلت بين كل سورة وسابقتها. ولم يكن كتابتها بين السورتين أو تركها إلا بتوقيف(١) ووحى].

تعددت أقوال المفسرين فى الآيتين السابقتين، وقال الطبرى: [وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب، قولُ من قال: الأجلُ الذى جعله الله لأهل العهد من المشركين، وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله (ﷺ)، ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته. فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه، فإن الله ـ جل ثناؤه ـ أمر نبيه (ﷺ) بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ فإن ظن ظانّ أن قول الله تعالى ذكره: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ يدل على خلاف ما قلنا فى ذلك؛ إذ كان ذلك ينبئ على أن الفرض على المؤمنين كان بعد انقضاء الأشهر الحرم قتْل كل مشرك، فإن الأمر فى ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الآية التى تتلو ذلك تبين صحة ما قلنا، وفساد ما ظنه من ظنّ أن انسلاخ الأشهر الحرم كان يبيح قتل كل مشرك، كان له عهد من رسول الله (ﷺ)، أو لم يكن له منه عهد، وذلك قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ فهؤلاء مشركون، وقد أمر الله نبيه (ﷺ) والمؤمنين بالاستقامة لهم فى عهدهم، ما استقاموا لهم بترك نقض صلحهم، وترك مظاهرة عدوهم عليهم.

وبعدُ، ففى الأخبار المتظاهرة عن رسول الله (ﷺ) أنه حين بعث عليّا ـ رحمة الله عليه ـ ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم، أمره فيما أمره أن ينادى به فيهم: «من كان بينه وبين رسول الله عهد، فعهده إلى مدته»، أوضحُ الدليل على صحة ما قلنا. وذلك أن الله لم يأمر نبيه (ﷺ) بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل، أو من كان له عهد إلى أجل غير محدود. فأما من كان أجل عهده محدوداً، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلاً، فإن رسول الله (ﷺ) كان بإتمام عهده إلى غاية أجله مأموراً. وبذلك بعث مناديه ينادى به فى أهل الموسم من العرب].

(١) أى بتحديد من الرسول (ﷺ) وفقًا للوحى.

وقال محمد الغزالى: [نزلت سورة براءة قبل وفاة رسول الله (ﷺ) بخمسة عشر شهرًا، أى بعد مرور اثنين وعشرين عامًا على بدء الوحى. كانت السياسة المتبعة خلالها فى معاملة أعداء الإسلام هى ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وهى سياسة ـ كما يرى كل منصف ـ لا إكره فيها على دين ولا مبادأة فيها بهجوم!، ولكن أعداء الإسلام من مشركين وكتابيين رفضوا أن تشقّ الدعوة طريقها المسالم، واشتبكوا معه فى قتال انتهى بهزائمهم.

فهل اعترفوا بالواقع وتراجعوا عن العدوان.. ؟ كلا.

لقد كانوا كالثعلب الذى يتماوت ليظفر بالحياة ويستأنف الغدر والفتك!.

وتحوَّلوا فرادى وجماعات إلى فلول تجور على حقوق المسلمين وتنال من مكانتهم. فلم يكن بدّ من منازلة العابثين وإلزامهم حدود الأدب.

وهذا معنى البراءة التى صدرت عن الله ورسوله ضد هذه القوى الخائنة!!.

والمؤسف أن بعض الناس جاء إلى الوحى النازل وشرع يتعسف فى تفسيره.

فهو يقسم الجملة قسمين يأخذ بأولها وينسى آخرها. مثل قوله بأن السورة شنّت حربًا هجومية على الكفار جميعًا، مستدلاً بقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وناسيًا بقيتها ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾!!.

ومثل فهمه كلمة «الناس» فى قوله تعالى ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣]. فقد فهم أن كلمة الناس تعنى البشر قاطبة!!.

ونسى الاستثناء والتعقيب الواردين بعد هذا العموم، وهما:

أولاً قوله تعالى ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ [التوبة: ٤].

فالمعنى واضح حاسم فى أن الحرب ضد قوم معينين ظاهروا علينا العدو واستباحوا حقوقنا.

وهل علينا من جناح فى حرب هؤلاء؟.

أما التعقيب فهو بالغ الأهمية. ذلك أنه فى أثناء تأديب المعتدين يظهر أقوام لا ناقة لهم فى الحرب ولا جمل!.

لا يريدون قتالاً، ولا يفكرون فيه!.

هؤلاء أُمر الرسول (ﷺ) بتأمينهم وطمأنتهم وإعادتهم سالمين إلى أرضهم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

فأين الحرب الهجومية فى هذا السياق النبيل؟.

لقد أعطى الإسلام مهاجميه مهلة قدرها أربعة شهور ليروا رأيهم ويرجعوا عن خطئهم ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾.

والمعنى أن المهلة ليست عن ضعف فلا تنخدعوا بقواكم المزعومة، فعاقبة الغدر وخيمة..

وقد أعلنت هذه المهلة يوم الحج الأكبر الذى يجمع العرب كلهم، المؤمن والمشرك، من له عهد ومن لا عهد له حتى يكون الأمر واضحًا كل الوضوح فلا عذر لأحد.

وزيادة فى الشرح، وزيادة فى كشف دخائل المشركين وخبث طواياهم، وحسمًا لكل اتهام بالعدوان من جانبنا عادت السورة تقول: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] انظر إلى حرصنا على الوفاء لمن وفى!! أما أهل الغدر، فكيف نحفظ لهم عهودًا ما حفظوها؟.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة].

نحن لم نعتد ولم نفكر فى عدوان، ولا نرتضى لأنفسنا هذا الوصف!.

ويبدو أن المسلمين كانوا يشعرون بقلق من تبعات هذا الموقف، ويدركون أن أعداءهم أقوياء، وأن قوتهم هى التى تدفعهم إلى مناوشة المسلمين والجور عليهم!!.

وقد كره القرآن الكريم هذه الرهبة، فقال محرضًا المسلمين على المقاومة وتأديب الغادرين: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

أتنتظرون البرّ بأيْمان، أو الوفاء بعهود ممن لا دين لهم؟.

ثم ازداد التحريض على تأديب الغادرين والناكثين، فقال جل شأنه ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة].

وعند متابعة السياق، ترى أن القوم الذين أمرنا بمحاربتهم ما كانوا أهل سلام ولا وفاء، وأنهم أساءوا إلى المسلمين طويلاً، وملأوا صدورهم غيظًا، وألحقوا بهم إهانات وجراحات شتى.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ...﴾ [التوبة].

أتجد فى هذا السياق أية إشارة لهجوم على قوم آمنين؟.

أو تعرُّض لطوائف من المسالمين..؟.

الحق أن وصف سورة براءة (التوبة) بأنها غيرت مجرى الحرب فى الإسلام جهل كبير.

فقد كنا وما زلنا وسوف نبقى، نسالم من سالمنا ونحارب من حاربنا، نعتمد فى دعوتنا على الشرح الوافى والبلاغ المبين، مع رفض للدنيَّة وأنفة من الذلّ والهوان.

عوملت الوثنية العربية خلال ثنتين وعشرين سنة ـ قبل نزول براءة ـ بأحكم وأرحم ما يعامل به نظام خرافى يريد فرض سيطرته للأبد!.

فى مكة كان الإسلام دينًا خارجًا على القانون لا اعتراف به.

وبعد الهجرة إلى المدينة خاض المسلمون مع أعدائهم نحو ثلاثين معركة وسرية.

ترى كم بلغت خسائر الوثنية العربية فى هذه الحروب؟ لقد ذكرت فى بحث سابق أن قتلى الكفار حوالى مائتين فى هذه الوقعات كلها... !!! أى (حوالى) عشر معشار مذبحة «سان بارثولوميو» فى باريس[1] التى أوقفت تقدم البروتستانت فى فرنسا الكاثوليكية!!].

***

(١) احتفلت فرنسا بتلك المذبحة وسمتها عيد سان بارثولوميو (٢٤-٢٥ أغسطس ١٥٧٢)، حين وافقت كاترين دى ميديتشى على مخطط ذبح البروتستانت فى فرنسا، لا لسبب إلا لأنهم بروتستانت، أى =

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

قال الطبرى: [عن ابن عباس قال: مدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من شهر ربيع الآخر، وذلك أربعة أشهر. فإن نقضَ المشركون عهدهم، وظاهروا عدوّا، فلا عهد لهم. وإن وفوْا بعهدهم الذى بينهم وبين رسول الله (ﷺ)، ولم يظاهروا عليه عدوّا، فقد أمر أن يؤدِّى إليهم عهدهم ويفى به].

﴿ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ قال البعض: هو يوم عرفة، والبعض الآخر: يوم النحر، وقال آخرون: المقصود أيام الحج كلها، وقال الطبرى: [أولى الأقوال عندنا بالصحة يوم النحر].

* * *

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

أما إذا انقضت الأشهر الحرم الأربعة ولم يتب المشركون الذين نكثوا عهدهم وقاتلوكم، فاقتلوهم أينما وجدتموهم ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾ اضربوا عليهم الحصار وضيقوا عليهم ﴿ وَاقْعُدُوا

= مسيحيون ولكن من طائفة البروتستانت وليس الكاثوليك، فذبحوا فى باريس وحدها ثلاثة آلاف، وألقوا بجثثهم فى نهر السين، ونهبوا منازلهم وحوانيتهم، وربما بلغ عدد الضحايا خارج باريس أكثر من عشرة آلاف بروتستانتى.

وقد كتب چون أدامز، الرئيس الثانى للولايات المتحدة فى خطاب لصديق له فى ٢٧/ ١٢/ ١٨١٦ يقول: انحرافات اليهودية والمسيحية جعلتهما أكثر الديانات دموية فى تاريخ البشرية. ـ النص من كتاب: *الدين والسياسية فى الولايات المتحدة*، والمؤلفان أستاذان جامعيان أمريكيان، مايكل كوربت، وجوليا ميتشل كوربت، أحدهما فى الدراسات السياسية والثانية فى الدراسات الدينية، والكتاب من منشورات جارلاند، وترجمته مكتبة الشروق الدولية، والنص فى صفحة ٨٠. والجدير بالملاحظة أن الرئيس چون أدامز كتب ذلك فى مطلع القرن التاسع عشر، ولم يكن استعمار أوروبا الغربية المسيحية بلغ أقصى مداه، ولم تكن الحرب الأهلية الأمريكية التى استمرت أكثر من خمس سنوات وراح ضحيتها أكثر من ستمائة ألف قتيل (من بين أقل من ٣٠ مليون أمريكى) قد اشتعلت، ولا أشعلت أوروبا المسيحية الحربين اللتين جرجرتا العالم فيهما فى القرن العشرين بقتلاهما الذين قاربوا مائة مليون، ومصابين أضعاف ذلك، مع تدمير آلاف المدن والقرى والمنشآت.

﴿لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ تربصوا بهم فى كل ممر وطريق ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فاتركوهم يحجوا ويعتمروا فإن الله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أولئك المشركون الذين عنتهم الآية هم من أجابوا على بن أبى طالب (ﷺ) عندما تلى عليهم صدر سورة التوبة قائلين: أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف، كما روى الطبرى والزمخشرى وغيرهما.

***

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

فإن طلب أحد من المشركين جوارك وحمايتك بعد انقضاء الأشهر الأربعة، فأجره واحمه حتى يسمع منك كلام الله، فإذا رفض الإسلام، فخذه تحت حمايتك إلى حيث يطلب منك، ليصل إلى المكان الذى يأمن فيه.

***

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾

كيف تعطون العهد للمشركين الناكثين دائمًا للعهود ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلا من عاهدتم عند المسجد الحرام مثل بنى كنانة وبنى ضمرة، فمن استقام لكم فاستقيموا له، وذلك حكم عام يشمل كل من حفظ العهد مع المسلمين، فى كل مكان وزمان ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ كيف تحافظون على عهد المشركين الناكثين لعهودهم المرة تلو المرة، إن ظفروا بكم لا يراعون فيكم قرابة ولا حلفًا ولا عهدًا، يظهرون غير ما يبطنون، فيقولون كلامًا لينًا، وقلوبهم تأبى تركككم فى سلام ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

***

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) ﴾

كفروا بآيات الله البينات، واستبدلوا بها عرضًا رخيصًا من أعراض الدنيا كالزعامة والجاه والمال والمتع الزائلة، ثم هم يصدون الناس عن سبيل الله ودينه، ولا يراعون فى مؤمن حلفًا ولا قرابة ولا عهدًا، ويعتدون على المؤمنين.

***

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) ﴾

ويظل باب التوبة مفتوحًا ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ فإن تابوا عن الكفر وعن نقض عهودكم، وعن قتالكم، أصبحوا ولهم ما لكم وعليهم ما عليكم، هذه الأحكام يبينها الله لقوم تنشرح صدورهم للعلم ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾ وإن نقضوا عهودَهم المؤكدة بالأيمان ألا يقاتلوكم ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ سبوا وتطاولوا على دينكم كما فعلوا من قبل، فهؤلاء هم أئمة الكفر، فقاتلوهم لعلهم ينتهون عن نقض العهود، وعن الطعن فى دينكم.

***

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) ﴾

ألا تقاتلون أيها المؤمنون جماعة من المشركين نقضوا عهودكم مرارًا وتكرارًا، وخططوا لإخراج الرسول (ﷺ) من مكة، وهم الذين بدأوا بقتالكم يوم بدر، وبعد صلح الحديبية عندما أعانوا بنى بكر على خزاعة المتحالفة معكم؛ فإذا كنتم تخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن

كنتم مؤمنين، ثم يأمر الله المؤمنين بقتال أولئك المعتدين[1]، ليعذبهم الله بأيدى المؤمنين، وينزل عليهم الخزى بهزيمتهم، وترتاح بذلك قلوب المؤمنين الذين وقعوا تحت ظلم أولئك المعتدين، ويمن الله على من يشاء من عباده، فيتوب عليه، ويهديه إلى دينه القويم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

***

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾

أم حسبتم أن تتركوا دون أن تجاهدوا فى سبيل الله، ودون أن ترفضوا الدخول فى سبيل وأحلاف غير المؤمنين ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ والمراد بالنفى فى ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ ولم تجاهدوا ولم تسلكوا إلا سبيل المؤمنين، فعلم الله ليس حادثًا بعد عدم علمه حتى تجاهدوا، ولكنه دليل على جهادكم، وارجع لشرح ﴿لَمَّا يَعْلَمِ﴾ الآية ١٤٣ سورة البقرة، والآية ١٤٢ سورة آل عمران.

***

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾

روى عن ابن عباس: أنه لما أُسر العباس يوم بدر، أقبل عليه المسلمون فعيروه بكفره بالله وقطيعة رحمه، وأغلظ على بن أبى طالب (رضي الله عنه) له القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له علّى (رضي الله عنه): ألكم محاسن؟ قال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقى الحاج، ونفك العانى (الأسير)، فأنزل الله عز وجل ردًا على العباس: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أى أن المشركين ليسوا

(١) جاء فى العهد القديم تحت عنوان: تدمير المدن التى تعبد الأصنام: إن سمعتم عن إحدى مدنكم التى يهبها الرب إلهكم لتسكنوا فيها، أن بعض الفاسقين قد خرجوا من بينكم وضللوا سكان مدينتهم قائلين: «لنذهب ونعبد آلهة أخرى، غريبة عنكم» فافحصوا الأمر أولاً وتحققوا منه بدقة. فإن تبين لكم صدقه، وثبت أن هذا الأمر الشنيع قد جرى فعلاً، فاقضوا قضاء على سكان تلك المدينة وعلى بهائمهم واقتلوهم بحد السيف. واجمعوا كل أمتعتها وكوموها فى وسط ساحتها وأحرقوا المدينة مع كل أمتعتها كاملة، انتقامًا للرب، فتصبح تلاً خرابًا إلى الأبد لا تُبنى بعد ـ التثنية ١٣: ١٢ـ١٦.

أهلاً لأن يعمروا مساجد الله ﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ بلسان حالهم، ومُقِّرين بذلك بنصب الأصنام حول الكعبة وعبادتها من دون الله، وتقديم القرابين ﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ بطلت، ومصيرهم خلودٌ فى النار، إنما الذى يُعَمِّر مساجد الله هم المؤمنون بالله واليوم الآخر، والمقيمون الصلاة، والمؤتون الزكاة، الذين لا يخشون إلا الله، فعسى أن يكونوا مهتدين إلى جنة الخلد. قال بعض المفسرين إن ﴿ فَعَسَىٰ ﴾ من الله متحققة، فهو سبحانه لا يشك ولا يتردد، وقال الزمخشرى: [تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء، وحسم لأطماعهم من الانتفاع بأعمالهم، (فإذا كان) الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى، اهتداؤهم دائر بين عسى ولعل، فما بال المشركين يقطعون أنهم مهتدون، ونائلون عند الله الحسنى]، وقال المراغى: [﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ أى فأولئك الذين يجمعون بين الأركان الهامة من أركان الإسلام هم الذين يرجون أن يكونوا من المهتدين إلى ما يحب الله ويرضيه من عمارة المساجد حسًا ومعنى (أى بناء المساجد والعمل بما تأمرهم الصلاة التى بنوا المساجد من أجلها) بحسب سننه تعالى فى أعمال البشر وتأثيرها فى نفوسهم، وبذا يستحقون عليها الجزاء فى جنات النعيم، لا أولئك المشركون الذين يجمعون بين أضدادها من الإيمان بالطاغوت والشرك بالله والكفر بما جاء به رسوله، وينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله وإلى منع الناس من الإسلام].

***

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

كما بينت الآية السابقة وشرحها، كان مشركو مكة يفتخرون ويتباهون بسقاية الحجيج والإشراف على عمارة المسجد الحرام، فقال تعالى موضحًا عدم مساواة الله بين من يفعل ذلك، وبين من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد بنفسه وبماله فى سبيل إعلاء كلمة الله ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

***

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

المؤمنون الذين هاجروا بدينهم من مكة إلى المدينة، وجاهدوا فى سبيل نصرة دين الله بأموالهم وأنفسهم؛ لهم الدرجات العظمى عند الله ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يبشرهم ربهم برحمته الواسعة، ورضوانه، ينعمون خالدين فى جناته العلى.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾

الولاية المنهى عنها هنا هى ولاية التحالف والنصر فى القتال، ثم نهت الآية التالية عن تفضيل حياة الدعة والاسترخاء بين العائلة والعشيرة، والتمتع بالأموال وازدهار التجارة والمساكن، عن سلوك سبيل الله واتباع رسوله فى الجهاد، ومن يفعل ذلك، فلينتظر حكم الله فيه، والله لا يهدى العصاة الجاحدين نعمه، فهو الذى رزقهم عائلاتهم وأموالهم وتجاراتهم ومساكنهم.

***

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧)﴾

دائمًا وأبدًا يأتى النصر من عند الله، ويمنعه الله عمن يشاء كيف يشاء. يهبُه للمؤمنين العاملين، ولا بد من الإعداد والاستعداد والتخطيط وبذل النفس والنفيس. وفى موقعة «حُنَيْن» بين مكة والطائف، التى كانت بين المسلمين وقبيلتى ثقيف وهوازن عقب فتح مكة، كان عدد المسلمين نحو اثنى عشر ألفًا من المقاتلين، فيقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ مؤنبًا المؤمنين ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ اغتررتم بكثرتكم واعتمدتم عليها ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ لم تنفعكم الكثرة فانهزمتم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ وبلغ بكم سوء الحال نهايته حتى أحسستم بضيق شديد فى أرض الله الواسعة، ثم فررتم منهزمين، وتركتم رسول

الله (ﷺ) مع قلة من المؤمنين ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم أنزل الله الطمأنينة على رسول الله (ﷺ) ومن حوله، كما ﴿أَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ذلك من أمور الغيب ـ وقد جاء فى سورة المدثر ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية ٣١] ـ فقاتل المسلمون وانتصروا ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ جزاءً عادلاً لكفرهم ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ ودائمًا أبدًا يقبل الله توبةَ التائبين؛ لأنه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ فى معتقداتهم ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ لا يدخلون الحرم للحج أو العمرة كما كانوا يفعلون فى الجاهلية بعد هذا العام، التاسع من الهجرة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ إن خشيتم فقرًا من منع دخولهم الحرم والإنفاق فيه ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ فإن شاء الله أغناكم، فله خزائن السماوات والأرض، وهو الرازق، وهو المانع، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

***

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾

الجزية أشبه بضريبة دفاع، يدفعها من لا يقاتل مع جيوش المسلمين من أهل الكتاب، وسرت أيضًا على المجوس مقابل حماية الدولة المسلمة لهم، وقد نزلت فى سنة تسع للهجرة ـ عندما تجهز رسول الله (ﷺ) لقتال الروم، بعد أن علم أنهم يعدون العدة لقتاله[1] ـ تؤخذ من غير المسلم الذكر البالغ الصحيح البنية والعقل، القادر على دفعها، وقد أعفى منها النساء

(١) أرسل الرسول (ﷺ) كتبه إلى ملوك الأرض وحكامها يدعوهم للإسلام، فبعث الحارث بن عمير إلى ملك بصرى، فقتله شرحبيل بن عمرو الغسانى، فأرسل محمد (ﷺ) قواته، وكانت معركة مؤته التى استشهد فيها ثلاثة من قواد المسلمين، وكان جيش الروم عدة أضعاف جيش المسلمين، الذين انسحبوا بقيادة خالد بن الوليد (رضي الله عنه). ثم أعد الروم العدة لقتال المسلمين فى المدينة ـ ارجع لحديث عمر فى البخارى رقم ٤٩١٣ تحت باب تبتغى مرضاة أزواجك، فى كتاب سورة التحريم ـ فجهز الرسول (ﷺ) قواته، وسار بهم فى غزوة تبوك، وقبلها نزلت الآيات.

والأطفال والشيوخ والمرضى، ولم يطالب بها العُباد والرهبان. قال شلتوت: [تضمنت الآيات فيما يختص بالمنحرفين من أهل الكتاب: أولاً: الأمر باستمرار قتالهم الذى بدءوا به حتى تبدو عليهم آية الخضوع لسلطان الإسلام وذلك بدفع الجزية. ثانيًا: بيان صفاتهم التى بها قرر استمرار قتالهم بعد عدوانهم حتى يخضعوا (وهى: لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، لا يدينون دين الحق. وتكمل الآيات ٣٠ إلى ٣٦ بقية تلك الصفات). ثالثًا: أرشدت الآيات ـ فى هذا السياق ـ إلى خطة رؤسائهم الدينيين فى سلب أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله[1]، وأشارت إلى سوء ذلك وسوء عاقبة كنز الأموال وعدم إنفاقها فى سبيل الله].

وقال محمد الغزالى: [.. وتفرغ المسلمون لمقاومة الرومان الذين أوصدوا الأبواب أمام الدعوة الإسلامية شمالىّ الجزيرة، ولا بأس أن نشرح مرة أخرى التزامنا أمام دعوتنا.

نحن لا نحارب مُعتدين ولا نكره أحدًا على اعتناق دين!.

إننا نعرض الإسلام فقط على الآخرين ﴿...فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فإذا آثر أحد الكفر قلنا له: لا عليك، ولن يصيبك منا أذى!.

كل ما نطلبه منك أن تتركنا ندعو غيرك، وألاَّ تتعرض لهذا الغير إذا استجاب لنا.

(١) نزل جزء كبير من الآيات ٢٩ وحتى ٣٤ فى كنيسة الروم فى وقت التنزيل. تلك الكنيسة التى رفض فساد عقيدتها وفساد ممارساتها كثير من المصلحين المسيحيين، أشهرهم وأهمهم مارتن لوثر الذى أسس البروتستانتية، والتى تعنى الاحتجاج على الكنيسة، وكان شعاره البابا عدو المسيح، وما زال ذلك شعار البروتستانت، يعلنونه أحيانًا، ويسرونه أحيانًا. أما الفساد المالى والأخلاقى لباباوات ورجال تلك الكنيسة، فقد بينته مئات الكتب الصادرة فى الغرب. وكثيراً ما تكلم ناقدو القرآن والإسلام بأن تلك الآية وغيرها تدعو إلى العنف والقتال، وأن الدين الإسلامى دين عنف وقتال، وأنه انتشر بالسيف. وبعد أن بين كثير من المفسرين سياق آيات القتال فى القرآن، فلتتصفح الكتاب المقدس، لنجد فيه تكراراً أكثر من عشرات المرات ـ فى بيان التزام بنى إسرائيل بالأوامر الإلهية، وفى مجال الإشادة بما فعلوا ـ أنهم دخلوا القرية، فقتلوا كل من فيها، رجالاً ونساءً وشيوخًا وأطفالاً، ولم يتركوا فيها نسمة حية، ولا حتى الحيوانات. أما مسألة انتشار الإسلام بالسيف فيكفى للرد عليها قول إن المسلمين من الجنس الملايوى (ماليزيا وإندونيسيا وبروناى، وجنوب تايلاند والفليبين) عددهم مساو إن لم يكن أكثر، للمسلمين العرب، ولم يذهب إليهم جندى مسلم واحد. وينتشر الإسلام الآن فى أمريكا وأوروبا. والحقيقة أن الكثير من قبائل وشعوب أوروبا أُجبر على اعتناق المسيحية بالسيف والبندقية، ومحاكم التفتيش. وفى استبداد الكنيسة الكاثوليكية، ومن ثم فسادها، قال البارون أكتون كلمته المشهورة: السلطة تميل للفساد، والسلطة المطلقة فساد مطلق.

إن الإسلام فى نظرنا هو العلاقة الفذة بين الله وعباده، وقد كلفنا الله بالبلاغ وإيقاد الضوء أمام من يجهل، فلا تعترض طريقنا ونحن نبلغ الناس، ولا تعترض الآخرين إذا شرح الله صدورهم للحق. فإن ارتضى هذا الحياد فأمره معنا، كما قال تعالى ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٠]. وإن قال: بل سأمنعكم من البلاغ وأمنع الآخرين من الاستجابة، قلنا له لقحت (أشعلت) الحرب بيننا وبينك.

فإن نصرنا الله عليكم جردناكم من السلاح الذى استخدمتموه فى العدوان. ويسرنا لكم أن تحيوا معنا آمنين على أموالكم وأعراضكم. وتولينا نحن عبء الدفاع عنكم إذا تعرض لكم أحد بسوء. وغرضنا أن تستبينوا حقيقتنا، وتتكشف لكم خبيئتنا، ثم كلفناكم فى نظير ذلك بعض المال الذى ننفقه فى الدفاع عنكم وعن شعائركم..

وهذه هى الجزية التى كثر اللغط حولها.

وهذه هى ملابسات فرضها، إنها لا تفرض على محايد آثر البعد ابتداء عن مصارعتنا!. وإنما تفرض على من قرر قتالنا، أو أعان بنفسه وماله المعتدين علينا..

والناظر فى آية الجزية يرى أنها أحصت مثالب مَنْ ضُرِبَتْ عليهم، وكشفت عن فقدانهم للإيمان بالله واليوم الآخر، واقترافهم فنون المعاصى، وخروجهم جملة عن سَنَن الأنبياء.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

وجاء فى صفاتهم بعد ذلك أنهم يؤمنون بسياسة تكسير المصابيح، ونشر الظلام ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢].

وأن أحبارهم ورهبانهم مهرة فى أكل أموال الناس بالباطل والصدِّ عن سبيل الله. . . .

وتاريخ الجزية جدير بالنظر، فإن الشعوب التى تعرفت على الإسلام من قرب سرعان ما دخلت فيه، وقع ذلك فى مصر وخراسان وأقطار أخرى، حتى نضبت موارد الخزانة من هذا الباب لكثرة من دخلوا فى دين الله.

وهذا هو المطلوب، فإن محمداً بُعث هادياً ولم يبعث جابياً].

***

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ فى العهد القديم من الكتاب المقدس سفر باسم عزرا، فهل هو عزير[1]؟ الله أعلم ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ومعروف أن هذا هو القول التقليدى للمسيحيين، ولكن كان هناك، ومازال، المسيحيون الموحدون، ولا يعلم عددهم ونسبتهم بين المسيحيين إلا الله ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ يشابهون فى هذا القول قول الكفار من قبل عندما قالوا: الملائكة بناتُ الله ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف ينحرفون عن الحق إلى الباطل ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ استندت كلّ من الكنيسة الرومانية والكنيسة البيزنطية على نص فى الأناجيل قال فيه المسيح (ﷺ) لبطرس: ما تحله فى الأرض يكون محلولاً فى السماء، وما تربطه فى الأرض يكون مربوطًا فى السماء، وفسرت ذلك بأن البابا له حق تشريع الحلال والحرام، وأنه معصوم، وأن له صلاحية غفران الذنوب، وطرد المسيحى من المسيحية، وإدخاله الجنة، أو حرمانه منها[2].

أما الأحبار المقصودون، فهم من كتب العهد القديم على هواه، وفسر شريعة موسى (ﷺ) على هواه[3].

* * *

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾

---

(١) جاء فى سفر عزرا أنه رئيس الكهنة، وكان كاتبًا ماهرًا فى شريعة موسى، وأنه عاد ببعض شعب إسرائيل من السبى البابلى إلى بيت المقدس.

(٢) قال بولس فى الرسالة إلى مؤمنى روما: أما تعلمون أنكم عندما تقدمون أنفسكم عبيدًا للطاعة، تكونون للذين تطيعونه عبيدًا؟ ـ ٦: ١٦.

(٣) جاء فى سفر إرميا: كيف تدعون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب، بينما حولها قلم الكتبة المخادع إلى أكذوبة؟ . . . حتى النبى والكاهن يرتكبان الزور فى أعمالهما (٨: ٨-١١). وجاء فى سفر إشعياء: آه يا شعبى! إن قادتكم يضلونكم ويقتادونكم فى مسالك منحرفة (٣: ١٢).

أولئك الأحبار والرهبان الذين لم ولن يتركوا المسلمين فى حالهم، والذين حاربوا الدعوة إلى الإسلام بشتى الطرق، أولئك ومن اتبعهم من أهل الكتاب هم الذين أمرت الآية السابقة بقتالهم. ولكن الله يتم نوره ولو كره الجاحدون الذين اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً، وهو الجاه والسلطان الدينى والمادى فى الحياة الدنيا، وتعظيمًا للعصبية الدينية بقولهم إنهم أبناء الله وأحباؤه، ورغمًا عنهم بلغت رسالة الإسلام أطراف الدنيا كلها ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾

السلطة تميل للفساد، والسلطة المطلقة فساد مطلق. مقولة مشهورة للبارون أكتون الكاثوليكى فى نهاية القرن التاسع عشر. وقد نزلت الآية فى واقع يعيشه المسيحيون تحت سلطة الكنيسة البيزنطية. ويحذر القرآن أولئك الأحبار والرهبان، بنار جهنم، جزاء بما يكنزون ومن ينهج نهجهم، سواء كانوا رجال دين مسيحيين أو يهودًا أو مسلمين.

***

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾

هاتان الآيتان عن السنة القمرية، التى تقوم عليها أحكام الشريعة فى المعاملات والزواج والطلاق، ومواقيت الحج والصوم والأعياد وغيرها ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ قال بعض المفسرين هو القرآن، وقال آخرون هو اللوح المحفوظ، والمقصود فى النهاية واحد، وهو أن ذلك ما كتبه الله، أى قضى به ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ رجب، وثلاثة متتاليات: ذو القعدة، وذو الحجة،

والمحرم. قال ابن عباس: الذنب فيهن أعظم، والأجر أعظم ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ هكذا أمر الدين الصحيح المستقيم ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بالمعصية عامة، وبأن تعتدوا بالقتال خاصة، ولكن ﴿قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ قاتلوا كل من يقاتلكم من المشركين ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

كان العرب فى الجاهلية يجعلون الشهر الحرام حلالاً إذا دعت الضرورة للقتال، ويعوضون ذلك بجعل الشهر الحلال حرامًا، ويقولون: شهرٌ بشهر، فبين الله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ والنسيء هو التأخير، وقيل الزيادة، والمعنى فى النهاية أنهم كانوا يتلاعبون بالأشهر الحرام، سواء بزيادة السنة أو بتغيير الشهور، ولذلك قال الرسول (ﷺ) فى حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار (استقام انضبط) كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» رواه البخارى. قال الزمخشرى: [كان جنادة بن عوف الكنانى مطاعًا فى الجاهلية، وكان يقوم على جمل فى الموسم، فيقول بأعلى صوته: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم يقوم فى القابل (العام التالى) فيقول: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه. جعل (الله) النسيء زيادة فى الكفر؛ لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفرًا، كما أن المؤمن إذا أحدث طاعة ازداد إيمانًا] ﴿لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ليوافقوا عدد الأشهر التى حرمها الله، ولكنهم يخالفون أوقاتها ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ حسنت لهم أهواؤهم تلك الأفعال ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

حين دعا رسول الله (ﷺ) المسلمين للخروج إلى غزوة تبوك فى أرض الشام فى رجب سنة تسع، بعد رجوعهم من الطائف، وكان وقت عسرة وجدب وحر شديد، عظم ذلك على بعض المسلمين، ومالوا إلى المكوث فى الظلال والمساكن والأهل، فتثاقلوا عن الجهاد، فنزل قول الحق مستنكرًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اخرجوا للقتال فى سبيل الله، فقد أعد الروم العدة لاستئصالكم ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ تباطأتم وأخلدتم إلى الأرض، هل اكتفيتم بمتاع الدنيا؟! ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾

قال رسول الله (ﷺ): «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم، فلينظر بما يرجع» وأشار بالسبابة، رواه أحمد ومسلم ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فالعذاب هو الجزاء الإلهى للمتقاعسين عن الجهاد؛ لذا قال (ﷺ): «ما تركَ قومٌ الجهاد إلا عَمَّهُمُ اللهُ بالعذاب» رواه الطبرانى، ومن اليسير على رب العالمين أن يجعل المسلمين قومًا غيركم، أيها المتقاعسون، يحملون رسالته ويجاهدون فى سبيله ﴿وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ بمعصيتكم، بل تضرون أنفسكم، وتخسرون إيمانكم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

***

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

تستمر الآيات فى الدعوة للجهاد فى سبيل الله، وتحفيز المترددين، وتوبيخ المنافقين مع كشف أساليبهم وفتنهم، وبيان سوء مصيرهم ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إلا تنصروا محمدًا رسول الله (ﷺ) وتخرجوا معه فإن الله قادرٌ على نصره، وقد سبق أن نصره حين ﴿أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ هو وصاحبه أبا بكر (رضي الله عنه) فى هجرتهما إلى المدينة وذكَّر الله المسلمين بنصره المبين لمحمد (ﷺ) ومعه أبو بكر، وحدهما، على قريش التى سعت لقتلهما ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ غار جبل ثور؛ حيث مكثا فيه حتى توقفت مكة عن البحث عنهما، فلما أصاب أبا بكر (رضي الله عنه) الحزن لما عليه حال خاتم النبيين (ﷺ)، طمأنه قائلاً ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وجدير بالملاحظة هنا قول الرسول (ﷺ): لا تحزن، فأبو بكر (رضي الله عنه) لم يخف، ولم يخش، ولكن حزن على حال خاتم النبيين (ﷺ)، وحال أهل مكة الذين أصروا على الكفر والتكبر والعناد، فأنزل الله هدوءًا وطمأنينة وبردًا وسلامًا على قلبه ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ـ فى آية سورة المدثر ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [الآية ٣١] ـ ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ وكلمتهم كانت إطفاء نور الله، سواء بحبس محمد (ﷺ) أو قتله، فذهبت فى الأرض سدى ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ بإتمام نوره فى العالم شرقه وغربه، شماله وجنوبه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. دائمًا وأبدًا يأمر رب العزة بالجهاد فى سبيله، فقد كلف بنى آدم بخلافته فى الأرض، وعليهم القيام بتلك الخلافة، وإلا

فشلوا فى الرسالة التى خلقهم الله لها، وهل هناك أسمى وأعظم وأنفع وأخلد من القيام بتلك الرسالة؟ ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أسرعوا إذا دعا داعى الجهاد على أى حال كنتم، سواء كان القتال فى حالة العسر أو اليسر، أو فى حالة القوة أو الضعف ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الأمر واضح والخيار واضح، إما تبذلون كل ما فى وسعكم من مال ونفس فى سبيل ما تؤمنون به، فتعلون بكلمة الله فى دنياكم وأخراكم، وإما تتقاعسون عن ذلك، فتعيشون أذلاء أدنياء تابعين، منافقين أو حتى جاحدين.

***

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾

لو كان خروجك لقتال الروم فى غزوة تبوك التى سميت غزوة العسرة ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أى نفعًا سهل المأخذ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطًا بين القريب والبعيد لاتبعوك وخرجوا معك، والخطاب هنا عن المنافقين ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ شق عليهم السفر الطويل وقتال جيوش الروم، أقوى من فى الأرض فى ذلك الوقت، فلجئوا إلى الحلف الكاذب، وتبريرات المضعفين لأنفسهم، والمذلين لها، وفى ذلك هلاك المنافقين ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الله يعلم ما فى قلوبهم، فقال تعالى لنبيه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ كان عليك ألا تأذن حتى يظهر الصادقون من الكاذبين.

***

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)﴾

لن يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر فى القعود عن الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ الذين يأتون أوامره ويمتنعون عن معاصيه، أما الذين يستئذنونك فهم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، تشككت قلوبهم فى عاقبة الخروج، فهم فى شكهم يترددون بين الخروج والقعود.

***

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ للقتال ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ لاستعدوا له، والحقيقة أن الله كره أن يخرجوا معكم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فأضعف هممهم عن الخروج.

* * *

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ لو خرجوا معكم لما كان منهم إلا أن أصابوكم بالخبال والاضطراب والتردد الذى بهم، ولأسرعوا بينكم بالفتنة، وفى بعضكم ضعف يجعلهم يسمعون وينقادون لهم ظنّا منهم أنهم على حق ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ من المنافقين والجاحدين ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ مثلما كان حين انصرف عبد الله بن سلول بأصحابه الذين كانوا ثلث الجيش يوم أحد، وقال الطبرى: [تخلف عنه عبد الله ابن أبى فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب] ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ دبروا لك الحيل والمكائد حتى نصرك الله وأظهر دينه رغمًا عنهم ولو كرهوا، وقال الزمخشرى: [عن ابن جريج: وقفوا لرسول الله (ﷺ) على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي﴾ اسمح لى بالقعود وعدم الخروج ﴿وَلا تَفْتِنِّي﴾ لا توقعنى فى شدة وضيق، وقال المفسرون إن الجد بن قيس تحجج لعدم خروجه بخوفه من أن يقع فى فتنة نساء الروم ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ برفضهم الجهاد فى سبيل الله، فبشر الجاحدين والمنافقين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

* * *

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾

هذه الآية تفضح نفوس المنافقين والذين فى قلوبهم مرض؛ فإن نالكم أيها المسلمون نصر وفتح وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تؤلمهم وتغضبهم حسدًا من عند أنفسهم، وإن أصابتكم مصيبة فى

الحرب من شدة وجراح وقتل ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ عملنا استعداداتنا من قبل وامتنعنا عن الاشتراك معكم، وينصرفون وهم فرحون بما نالكم من الأذى. قل لهم يا محمد: ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ لن يصيبنا إلا ما كتبه علينا الله مولانا، نعم المولى ونعم النصير، وعليه نتوكل في الأمور كلها. وجاء في حديث الرسول (ﷺ) لابن عباس (رضي الله عنه) «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي.

***

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾

ما تنتظرون أن يحل بنا ﴿إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ النصر أو الشهادة وكلاهما حسن، أما نحن فننتظر لكم ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ كما عذَّبَ الأمم السابقة ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ فننتصر عليكم، فانتظروا إنا منتظرون.

***

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)﴾

قل يا محمد للمنافقين الذين يحاولون ستر نفاقهم وتكاسلهم بالإنفاق عوضًا عن خروجهم للغزو ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لن يتقبل الله نفقاتكم؛ لأنه يعلم مدى فسقكم وكفركم، وقيامكم للصلاة متثاقلين، وما ينفقون إلا مضطرين كارهين ـ وجاء في سورة المائدة ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الآية ٢٧].

***

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)﴾

لا يروق لك ـ أيها المسلم ـ كثرة أموال المنافقين وعدد أبنائهم؛ فإن عطاء الدنيا ليس دليلاً على رضا الله؛ فقد يكون ابتلاءً ووبالاً، ويكون سببًا فى عذابهم فى الدنيا بشدة التكالب والحرص، وعند موتهم تخرج أرواحهم ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ويقسم المنافقون لكم بأغلظ الأيمان أنهم مسلمون، ولكن الله يعلم أنهم ليسوا منكم ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ إنما هم يخافون ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا﴾ لو يجدون مكانًا يلجأون إليه منكم ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ غار تعنى استتر وغاب، وقال الزمخشرى وتعنى أسرع ﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾ أوما يدخلون فيه، والمعنى المقصود أنهم لو وجدوا ما يُغَيَّبون أنفسهم فيه ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ لذهبوا إليه وهم مسرعون.

***

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ومنهم من يعيب ويطعن عليك فى توزيع الصدقات فإذا أخذوا رضوا، وإن لم يأخذوا سخطوا عليك، ولو أنهم رضوا بتوزيعك الصدقات حسبما أراك الله، واحتسبوا أجرهم عند الله، ورغبوا فيما عنده، وجواب لو محذوف هنا، فكأن الله سبحانه وتعالى ترك للقلوب والمدارك السليمة تقدير الجواب، الذى هو خير لهم وأبقى.

***

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

تبين الآية مصارف الزكاة الثمانية:

﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى الفقراء والمساكين، وجمعها أن دخل الاثنين لا يفى بحاجاتهما الشرعية.

قال المراغى: [المساكين أسوأ حالاً من الفقراء لقوله ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد] أى ألصق جلده بالتراب فى حفرة استتر بها مكان الإزار وبطنه به لشدة الجوع وذلك منتهى الضرر والشدة]، بينما ختم رشيد رضا مقاله، الذى تجاوز الصفحتين، فى المسألة قائلاً: [شدة الحاجة الملصقة بالتراب لا تنافى التجمل والتعفف، ويدل على هذا قوله (ﷺ) «ليس

المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذى يتعفف، اقرؤوا إن شئتم ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾» [البقرة: ٢٧٣]، وفى لفظ: «ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فَيُتَصَدَّقُ عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» ـ متفق عليه].

﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ جهاز العمل الذى يسعى فى تحصيلها وتوزيعها وضبط حساباتها.

﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ تعددت أقوال المفسرين والفقهاء فى تحديدهم، وهل انقطع ذلك السهم بعد إعزاز الإسلام طبقًا لفعل عمر (رضي الله عنه)، وقول أبى حنيفة؟ قال الطبرى: [الصواب من القول فى ذلك عندى أن الله جعل الصدقة فى معنيين، أحدهما: سد خلة المسلمين، والآخر معونة الإسلام وتقويته... وكذلك المؤلفة قلوبهم، يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء، استصلاحًا بإعطائهموه أمر الإسلام وطلب تقويته وتأييده. وقد أعطى النبى (ﷺ) من أعطى من المؤلفة قلوبهم، بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وفشا الإسلام وعز أهله]، وقال رشيد رضا: [هم الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم على الإسلام، أو التثبت فيه، أو بكف شرهم عن المسلمين، أو رجاء نفعهم فى الدفاع عنهم، أو نصرهم على عدو لهم. وذكر الفقهاء أنهم قسمان: كفار ومسلمون، والكفار ضربان، والمسلمون أربعة]. ثم ختم تفسيره قائلاً: [الواجب فيه الأخذ برأى أهل الشورى، كما كان يفعل الخلفاء فى الأمور الاجتهادية].

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فى فك العبيد والأسرى.

﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ المدينين الذين لا يجدون قضاء لديونهم بسبب تعثر فى الأعمال، أو سوء حظ أو مصائب وما إلى ذلك، أو تحملوا غرامات ليصلحوا بين المتخاصمين، أو يسددوا ديون غير القادرين.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كل عمل فيه صلاح للإسلام والمسلمين والبشر أجمعين.

﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ الغريب المسافر المحتاج.

شرع الله هذه المصارف الثمانية لمصلحة البلاد والعباد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة العامة والخاصة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع.

قال الشافعى: إنه يجب صرفها فى المصارف كلها. والجمهور على جواز صرفها فى أى مصرف منها.

* * *

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

ومن المنافقين من يعمدون إلى أذية رسول الله (ﷺ) ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ يسمع لكل من يحدثه ويصدقه ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ قل لهم يا محمد: نعم أسمع وأتحرى الخير لكم ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس: يؤمن بالله ويُصَدِّق المؤمنين ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ جاء برسالة الرحمة من الله لمن آمن به، منكم، ومن العالمين ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

***

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) ﴾

يقسمون أيمانًا كاذبة ليرضوكم، فإن كانوا مؤمنين حقًا لصدقوا إيمانهم بالعمل كما أراهم الله، وليس بمحاولاتهم إرضاءكم ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ألم يبين لهم إيمانهم أن من يخالف شرع الله سيخلد فى نار جهنم حيث الذل والهوان؟!

***

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) ﴾

يتطاول المنافقون فيما بينهم على الله ورسوله، وفى الوقت نفسه يخافون ويحذرون أن تنزل من السماء آية تفضح نياتهم وما يستهزئون، قل لهم يا محمد: ﴿ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ وكاشفه أمام الناس أجمعين، ومن عجيب الأمر أنه إذا ضيق عليهم أحدٌ فسألهم هل تسخرون من الله ورسوله وتستهزئون؟ قالوا: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ إننا لا نقصد أو نعمد إلى الاستهزاء، ولكن الأمر مجرد تسلية ولعب!! ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾.

***

﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) ﴾

يقول تعالى للمنافقين بعدما حاولوا التملص مما ارتكبوا: ﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ كفرتم بعدما عرفتم صدق الرسول (ﷺ) وحقيقة رسالته ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ لأنها تابت وأنابت، فسنعذب الطائفة الأخرى؛ لأنها أصرت واستكبرت وتربصت بالمسلمين، ثم وصف الله ـ تعالى ـ المنافقين والمنافقات بأنهم ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ ﴾ بدلاً من أن ينهوا عنه ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ بدلاً من أن يأمروا به ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ عن الزكاة والإنفاق فى سبيل الله ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أغفلوا طاعة الله فتركهم لأنفهسم ليهلكوا، ثم أكد الله ـ تعالى ـ بأن ﴿ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ هم الخارجون عن طاعة الله إلى معصيته، وتكفيهم نار جهنم.

***

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) ﴾

أنتم أيها المنافقون كالذين من قبلكم، لم تتعظوا بهم؛ رغم أنهم ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا ﴾ ولقد تنعموا واستمتعوا بحظهم من ملذات الدنيا، ثم أهْلكُوا بذنوبهم، وها أنتم تمشون على خطاهم، فتستمتعون بنصيبكم من متاع الدنيا على حساب الآخرة، ثم تخوضون فى الباطل كما خاضوا، فتجحدون آيات الله كما فعلوا ولم تتعظوا بهم، فالسابقون واللاحقون ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

***

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾

ألم يتعظوا ويعتبروا بالأمم السابقة: أقوام نوح وعاد وثمود وإبراهيم صلى الله عليهم وسلم أجمعين ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ وهم قوم لوط، انقلبت بهم منازلهم رأسًا على عقب، وأمطروا بحجارة من سجيل ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أتتهم رسلهم بالآيات الدالة على الوحدانية فجحدوها، فعاقبهم الله ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

***

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾

تؤكد الآية على تكاتف وتكافل المسلمين بعضهم مع بعض، وكما وصفهم رسولهم (ﷺ): «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» رواه البخارى، و«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» رواه البخارى، و«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» رواه الحاكم والطبرانى فى «الأوسط». ومن صفات هؤلاء المؤمنين دوام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإقامة الصلاة فى أوقاتها وبإتمام أركانها، وبالعمل بما تأمر به واجتناب ما تنهى عنه، وتذكرهم بالله والعمل فى سبيله والتقرب إليه، وأداء الزكاة، ومداومة الطاعة لكل ما أمر به الله ورسوله؛ لذا بشرهم ربهم بالرحمة والمغفرة؛ لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾ يعز المؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ فى تشريعه وفى أقداره، ولقد وعدهم ربهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ ورضوان الله، فهذا هو النعيم الأكبر والفوز العظيم. وفى الحديث: «إن الله ـ عز وجل ـ يقولُ لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك وسعديك والخير فى يديك، فيقول: هل رضيتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحِلُّ عليكم رضوانى، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا» رواه مالك، والشيخان.

واستدل بصدر هذه الآية ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ من أجاز ولاية المرأة على الرجل.

***

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾

قال رشيد رضا: [ابذل جهدك فى مقاومة الفريقين الذين يعيشون مع المؤمنين بمثل ما يبذلون من جهدهم فى عداوتك، وعاملهم بالغلظة والشدة الموافقة لسوء حالهم، وقدم ذكر الكفار فى الجهاد لأنهم المستحقون له بإظهارهم لعداوتهم له (ﷺ) ولما جاء به، والمنافقون يخفون كفرهم وعداءهم ويظهرون الإسلام فيعاملون معاملة المسلمين فى الدنيا، وقدم ذكر المنافقين فى جزاء الآخرة (فى الآية ٦٨) لأن كفرهم أشد] ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ نزلت الآية فى منافقين كفروا بعد إسلامهم، وهمّوا باغتيال الرسول (ﷺ) فى العقبة أثناء العودة من تبوك، فأمر الرسول (ﷺ) حذيفة وعمار بن ياسر ـ رضى الله عنهما ـ بحراسته منهم، ثم قال حذيفه له: أولا تأمر يارسول الله فنضرب أعناقهم؟ فأجابه: «أكره أن يتحدث الناس ويقولوا إن محمدًا يقتل أصحابه»، وقال الطبرى: [وقال آخرون: الذى همّ، عبد الله بن أبى ابن سلول، بقوله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل] ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ وما كان سبب نقمتهم عليك إلا بطرًا وجحودًا بما حصلوا عليه من الغنائم التى شاركوا المسلمين فيها، فقابلوا الإحسان بالسيئة ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ فباب التوبة مفتوح لا يغلق حتى يغرغر الإنسان ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا ﴾ فيصروا على الكفر ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ بخزيهم فى الدنيا، وفى الآخرة بنار جهنم ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

***

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) ﴾

ومن هؤلاء المنافقين من أقسم بالله وعاهده لئن رزقنا من رزقه الواسع لنتصدق ونعمل الصالحات، فلما رزقهم الله بخلوا واستغنوا، ونسوا العهد ـ وذلك منهج الجاحد، كما بينته سورة العلق ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ ـ وإذا بهم ﴿تَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أداروا ظهورهم إعراضًا عن كل ما عاهدوا الله عليه، فكان نتيجة هذا النكران والجحود والبخل أن أعقبهم الله ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ ستظل قلوبهم منافقة حتى يوم الدين. ألم يعلموا أن الله شاهدٌ عليهم، يعلم النجوى وما تخفى الصدور؟ لأنه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

***

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)﴾

أعطى عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) عطاء واسعًا، فطعن المنافقون وعابوه قائلين ما فعله إلا رياء، ثم أعطى أبو عقيل الأنصاري (رضي الله عنه) صاعًا من تمر، واعتذر للرسول (ﷺ) قائلاً إنه لا يملك إلا صاعين، أمسك أحدهما لأهله وجاء بالثاني، فطعنوا وعابوا قائلين إن الله لغنى عن هذا ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ففي علم الله أن أولئك المنافقين لن يتوبوا، وسيظلوا على نفاقهم حتى يموتوا وهم كافرون، والله لا يهدى الفاسقين. والمراد بالسبعين الكثرة، وليس العدد عند كثير من المفسرين.

***

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين استأذنوا رسول الله (ﷺ) عن الخروج معه إلى غزوة تبوك فأذن لهم بالتخلف، ولم يكتفوا بذلك بل راحوا يشيعون بين الناس ألا ينفروا؛ فالحر شديد، قل لهم يا محمد: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ لو كانت لهم قلوب تفقه، لعرفوا أن

نار جهنم أشدُّ حرًا، وهم ما كثون فيها وقتًا أطول ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ فرحًا بتخلفهم فى الدنيا، وغمًا على مآلهم فى الآخرة جزاءً بما كسبت أيديهم.

* * *

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)﴾

إن ردك الله، فجاءت إليك تلك الطائفة المنافقة التى فرحت بتخلفها عنك، يستئذنونك للخروج معك فى غزوة أخرى فقل لهم يا محمد ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ إنكم ارتضيتم أن تتخلفوا عن الجهاد فى غزوة تبوك بدون عذر، ولم يتبع ذلك توبة خالصة وندم شديد ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ من النساء والأطفال والعجزة والكهول ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ للدعاء؛ لأنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

* * *

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧)﴾

لا يعجبك يا محمد مظهر المنافقين من وفرة فى المال، وكثرة فى الأولاد؛ فإن الله يريدُ أن يعذبهم بها فى الدنيا، وقال الطبرى فى ذلك: [بالغموم والهموم]، وربما نشاهد كيف تجنى الثروة والنفوذ؛ حيث لا يكونان من سبيل الله المستقيم، ولا فى سبيل الله، على كثير من الناس ويعيشون فى ضغوط نفسية وشقاء ـ وكما قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] ـ ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ويلقون الله وقد عبدوا متاع الدنيا واطمأنوا بها. ومن صفات هؤلاء المنافقين أنه إذا ما أنزل الله سورة من القرآن تدعو للإيمان بالله والجهاد فى سبيله ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ اعتذر عن الجهاد أصحاب القدرة ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ قالوا اتركنا نمكث مع القاعدين من النساء والأطفال

والعجزة ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ رضوا بأن يصبحوا مع الخوالف من النساء والأطفال والعجزة ﴿طُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ استحكم جحودهم ومرض قلوبهم بما لا شفاء يُرجى منه، فختم الله على قلوبهم، فلا يفقهون مهلكهم.

***

﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)﴾

أما رسول الله والمجاهدون معه بأموالهم وأنفسهم، فسينالون خيرات الله ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ دنيا وآخرة؛ حيث جزاؤهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

***

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)﴾

سلك القراء والنحويون والمفسرون في كلمة ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ مسلكين، فمن قائل إن معناها الذين لهم عذر حقيقي، وقائل بل المقصود من يتحجج وليس له عذر حقيقي. ثم تناولت الآية المكذبين الذين لم ينافقوا ولم يأتوا لرسول الله (ﷺ) وينتحلوا الأعذار لعدم خروجهم معه، ثم بينت الآية أن الذين كفروا من المجموعتين، سيصيبهم عذاب أليم.

***

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾

لا إثم ولا مؤاخذة على الضعفاء ولا على المرضى والفقراء ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ ثم هم يخلصون النصيحة والدعاء، فأولئك رغم قلة مساهمتهم أو حتى عدمها، هم عند

ربهم من المحسنين، بدعواتهم ونياتهم، وقال رسول (ﷺ) فى إحدى غزواته: «إنَّ أقوامًا خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا، حبسهم العذر» رواه البخارى، وفى رواية: «إلا شركوكم فى الأجر» رواه مسلم، وقال: «من سأل الله ـ تعالى ـ الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه» رواه مسلم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كذلك ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الدواب ليسافروا معك إلى تبوك للجهاد ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ نزلت هذه الآية فى البكائين الذين أتوا رسول الله (ﷺ)، وليس لديهم ما يركبونه إلى تبوك، يسألونه العون فى ذلك، فأجابهم بأن ليس لديه ما يحملهم عليه، فبكوا حزنًا لقلة حالهم التى حرمتهم من الجهاد فى سبيل الله.

***

obeikandl.com